المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:01 (2024)، ص418 -436

قضايا البحر الأبيض المتوسط والشمال الإفريقي في المدونات الفرنسية:
"كتابات بروديل بالمجلة الإفريقية أنموذجا"

Mediterranean and North African issues in French blogs: Braudel's writings in the African magazine as an example.

مسعودة بوجلال
جامعة أم البواقي (الجزائر)
boudjellal.messaouda@univ-oeb.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/03/15
تاريخ القبول:
2024/04/27

الكلمات المفتاحية:
- ✓ البحر الأبيض المتوسط
- ✓ فيرناند بروديل
- ✓ الإمبراطورية الإسبانية
- ✓ المجلة الإفريقية

الملخص:

شهدت منطقة حوض البحر المتوسط خلال القرن 10هـ/16م تطورات عديدة، وتغيرات هامة في العلاقات القائمة بين مختلف الدول المطلة عليه، خاصة في الجزء الغربي منه. ويعتبر هذا القرن بالنسبة للتاريخ المغاربي والشمال الإفريقي، قرناً محورياً إذ شهد تحولاً كبيراً على جميع المستويات، ولعل أبرزها الصراع الإسلامي المسيحي لذي قادته كل من الدولة العثمانية في الشرق، والإمبراطورية الإسبانية في الغرب؛ هذه الأخيرة التي شنت حرب صليبية على منطقة الشمال الإفريقي بدأت رحاها لا سيما عقب سقوط غرناطة. وكان المؤرخ الفرنسي بروديل شغوفاً بالبحر الأبيض المتوسط هذا الأخير الذي ارتبطت به حياته منذ شبابه، والذي كرّسه جزءً كبيراً من حياته ليفهم أحداثه ووقائعه وتقلباته. وفي هذه الدراسة سنتناول طرحه لقضايا البحر الأبيض المتوسط من خلال مقالاته التي نشرها بالمجلة الإفريقية؛ والتي جاءت في 19م لتنشر أعمالاً كثيرة لباحثين من مختلف الجنسيات والثقافات وحتى الإيديولوجيات.

Article info

Received:
15/03/2024
Accepted:
27/04/2024

Key words:
- ✓ Fernand Braudel
- ✓ Mediterranean Sea
- ✓ African Journal.
- ✓ Spanish Empire

Abstract:

During the 10/16th century AD, the Mediterranean basin region witnessed many developments and important changes in the existing relations between the various countries bordering it, especially in the western part of it. For Maghreb and North African history, this century is considered a pivotal century as it witnessed a major transformation at all levels, perhaps the most prominent of which is the Islamic-Christian conflict led by both the Ottoman Empire in the East and the Spanish Empire in the West. The latter launched a crusade against the North African region, especially after the fall of Granada. Braudel was so passionate about the Mediterranean, where he showed strong attachment since his youth, and who devoted a large part of his life to understanding its events, facts and changes. In this study, we will deal with his treatment of the Mediterranean issues and concerns based on his published articles in the African Journal.

مقدمة

شهدت منطقة حوض البحر المتوسط خلال القرن 10هـ/16م تطورات عديدة، وتغيرات هامة في العلاقات القائمة بين مختلف الدول المطلة عليه، خاصة في الجزء الغربي منه. ويعتبر هذا القرن بالنسبة للتاريخ المغاربي والشمال الإفريقي، قرناً محورياً إذ شهد تحولاً كبيراً على جميع المستويات، كما عُرف بقرن المجابهات الحربية بين مختلف الأطراف. كل تلك الظروف فرضت ذلك النوع من الاحتكاك بين منهجين حضاريين مختلفين، وإيديولوجيتين متناقضتين وفق مصالح متضاربة ميزت الأحداث بين ضفتي المتوسط الشرقية والغربية.

ومن هنا ظهر المد الأيبيري في المغرب الإسلامي الذي كان عبارة عن حرب صليبية، وقد عجل حدث سقوط غرناطة سنة 1492م بانطلاق الطاقات الإسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار، وقد كانت إفريقيا على قُربها الشديد الاختيار المنطقي الأول في هذه الاستراتيجية. وفي الوقت نفسه فإن هجرة الموريسكيين قد خلقت التأزم، ووفرت سبباً لتعليل التدخل الإسباني في المنطقة.

ولا يمكننا الحديث عن البحر الأبيض المتوسط، ومنطقة الشمال الإفريقي، دون أن يحضُرنا بروديل ومؤلَفه المرجعي "**المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**"، ومن حينها لم يتوان بروديل في تناول قضايا البحر الأبيض المتوسط، سواء تعلق الأمر بتأليف الكتب أو كتابة المقالات في المدونات الفرنسية، وعلى رأسها المجلة الإفريقية التي جاءت في القرن التاسع عشر لتنشر أعمالاً كثيرة، لباحثين درسوا تاريخ وقضايا البحر المتوسط من تحالفات، وصراعات، وغيرها عبر حقب تاريخية متعاقبة.

كما حظيت المجلة بأهمية تاريخية وعلمية من بين جملة من المجلات الفرنسية الاستعمارية، التي كانت جُلّ بحوثها تسعى لتدمير خصوصيات المجتمع الجزائري والإسلامي، وإعادة تشكيله على أُسس جديدة، تجعله خاضعاً للسيطرة الاستعمارية، وتسمح بإعطاء صورة عن توجهات الكتابة الغربية حول الصراعات القائمة في حوض البحر المتوسط لاسيما بين الإسلام والمسيحية. وعليه يمكن أن نطرح التساؤل الآتي: **كيف عالج المؤرخ الفرنسي بروديل قضايا البحر الأبيض المتوسط من خلال مساهمته في المجلة الإفريقية؟ وهل تأثرت كتاباته بنظريات المؤرخين الاستعماريين في إعطاء صورة واضحة وحقيقية لحقيقة ما كان يحدث في البحر الأبيض المتوسط وفي منطقة الشمال الإفريقي بالتحديد؟**

1.تعريف فرناند بروديل

ولد بروديل في 24 أوت 1902م، في قرية فرنسية صغيرة تدعى لوميفيل، في شمال شرق فرنسا، قرب الحدود البلجيكية، وهناك أمضى السبع سنوات الأولى من عمره (Mcneill,2001, pp.134-135).

أصبح أستاذاً للتاريخ وعمره 21 عاماً، بعد أن تخرج من مدرسة المعلمين العليا في 1923م، واشتغل بمهنة التدريس لمدة عشر سنوات، كانت البداية في الجزائر (1923-1932م)(Mcneill,2001,p.135) ، ثمّ في ساو باولو (البرازيل) (1935-1937م) (ليتشه، 2008، ص ص191- 192). وبعد عودته من البرازيل عام 1937، عُين في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس خلفًا للوسيان فيفر (Mcneill,2001, 138

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

pp.137–)، ثمّ تولى عمادة القسم السادس من مدرسة الدراسات العليا، وتولى أيضاً إدارة مجلة الحوليات (Les Annales) ما بين (1956–1968)، وتمّ انتخابه عضواً في الكوليج دي فرانس (Collège de France) (1949–1956)، ثمّ في الأكاديمية الفرنسية (1984) (دوس، 2009، ص199). وفي عام 1962 شغل منصب مدير دار علوم الإنسان (Maison des Science de l'Homme) (بروديل، 2013، ص 6).

وقع بروديل في الأسر خلال الحرب العالمية الثانية في جوان 1940م؛ حيث اعتقله الألمان ونقلوه إلى ألمانيا، ووضع تحت الإقامة الجبرية إلى غاية 26 ماي 1945م (ليتشه، 2008، ص 192). أتمّ في معسكر الأَسَر في لوبيك شمال ألمانيا، رسالة الدكتوراه التي ناقشها بجامعة السربون والتي كان موضوعها: "**المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**"، سنة 1947، وهي رسالة ضخمة وضع فيها أسس فلسفته ومنهاجه وتخطيط مدرسة في التاريخ (بروديل، 2013، ص 5).

وعلى مدى أكثر من 20 عاماً، تمتع بقدر كبير من القوة والنفوذ في مجال التاريخ والعلوم الاجتماعية على نطاق واسع. وتوفي في 28 نوفمبر 1985م (دوس، 2009، ص ص 20–24) عن عمر يناهز 83 عاماً. وبوفاته انتهت "**ملحمة الملك بروديل**" حسب عبارة مجلة الملاحظ الفرنسية (L'observateur)، كونه أعطى لعلم التاريخ دفعاً قوياً، خرج به من دوائر النخب الضيّقة إلى دوائر فئات الشعب الفرنسي وغيره من الشعوب (بروديل، 2009، ص 24). وبروديل عند وفاته كان من المؤرخين الأكاديميين الأكثر شهرة وفاعلية في العالم، هذه الفاعلية التي زادت بسبب الكتب والمؤلفات التي تركها بعد وفاته (Mcneill, 2001,p.133).

وقد قام بتنظيم أعمال بحثية متعددة التخصصات حول التاريخ، تركزت على أفكار "**المُدة الطويلة**" و"**الاقتصاد العالمي**" (بروديل، 1999، ص ص 68–90). تتميز أعماله بكتابين رئيسيين: "**البحر الأبيض المتوسط والبحر الأبيض المتوسط في عهد فيليب الثاني**" (1949)، و"**الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية**" (1979)، كتاب "**هوية فرنسا**" (بروديل، 2013، ص 7)، كتاب "**قواعد لغة الحضارات**"، "**كتابات حول التاريخ**"، "**ديناميكية الرأسمالية**"...الخ (مسعودة، 2015، ص ص 99–122).

2. منهجه التاريخي

يقوم المنهج البروديلي على ثلاثة أنواع من التاريخ: تاريخ شبه ثابت، وتاريخ إيقاعي بطيء، وتاريخ تقليدي. وبالنسبة له، يرتبط التاريخ شبه الثابت بالتاريخ الذي يحيط بالإنسان، وهذا التاريخ يتحول ببطء شديد، أما النوع الثاني من التاريخ فيتعلق بتاريخ الجماعات والتجمعات ويسمى بالتاريخ الاجتماعي؛ في هذا المستوى يمكننا فحص الاقتصاد والدول والحضارة. أما النوع الثالث من التاريخ فيتعلق بالفرد وهو تاريخ الأحداث، وعليه فهو يقسم الزمن التاريخي إلى: زمن جغرافي، زمن اجتماعي، زمن فردي (التاريخ الحدثي أو التقليدي) (kellenbenz, 1975, pp.257–258).

وكان لبروديل المؤرخ الحولياتي الدور الريادي في تطوير منهجية كتابة التاريخ، إذ أنه كان يدعوا إلى توجيه نظر المؤرخ نحو مسائل جديدة، أعمق من تلك التي يدعوا إليها التاريخ التقليدي المرتبط بالبعد الفردي

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

للإنسان وفقط (Bhattacharya, 1990, p.309)، من ملوك وممالك وقادة وأصحاب نفوذ...الخ، بل النظر بنظرة تجمع شتات الحياة في العصور التي يتم تناولها، وبالإحاطة بطوائف المجتمع المختلفة، فيكون التاريخ؛ تاريخ بشر بقدر ما يكون تاريخ دول (بروديل، 2013، ص 6).

إن التاريخ علم متنوع لدرجة أنه لا يمكنه إعادة بناء الصورة الكاملة باستخدام جانب واحد، وفي الوقت نفسه، من المستحيل تفسير الأحداث التاريخية باستخدام عامل واحد مهيمن، ففي الواقع، لا يوجد شيء اسمه التاريخ من جانب واحد. ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن ينكر دور الأفراد أو الأحداث في التاريخ، على الرغم من أن الفرد غالبًا ما يكون مجردًا، ولهذا السبب لا يتفق بروديل مع الفكرة القائلة بأن "**الرجال يصنعون التاريخ**"، فبالنسبة له "**التاريخ أيضًا يصنع الرجال ويُشكل مصيرهم**" (Bhattacharya, 1990, p.310)).

ولا يكون ذلك–بناء صورة كاملة للتاريخ– إلا بتجاوز المنهج الشائع في البحوث التاريخية، التي تحصر رؤية المؤرخ في تناول دور الملوك والقادة والأبطال، دون الأخذ بعين الاعتبار العوامل الاجتماعية الأخرى في تعددها وتنوعها (كوثراني، 2013، ص 212).

إذن يمكن القول أن القاعدة الأساسية التي بَنى عليها بروديل منهجه الجديد هي التخلي عن فكرة الاعتقاد بوجود قطيعة بين الماضي والحاضر (بروديل، 1993، ص ص 7–8). وهكذا يكون بروديل قد قلب التصور الخطي للزمن الأفقي الذي يرتكز على التاريخ التقليدي، وعوضه بزمن عمودي، لا يختلف فيه الماضي عن الحاضر وعن المستقبل، وهي أزمنة تتكرر باستمرار (دوس، 2009، ص 180). ويتميز هذا المنهج بكون الواقع الاجتماعي لا يختلف عن الواقع الثقافي والسياسي والاقتصادي والكل في تفاعل مستمر (بروديل، 1993، ص 13).

لقد سعى بروديل إلى جعل التاريخ، تاريخاً شاملاً، من خلال إدراك كل ما هو اجتماعي في حركة واحدة للوصول إلى ما يسميه مجموع المجاميع، أو التاريخ الكلي (Histoire Totale) (Braudel, 1979,p.408). لكن ليتمكن المؤرخ من إدراك واستحضار كل العوامل المحيطة بالواقعة التاريخية في تعددها وتنوعها؛ يتطلب منه هذا ثقافة واسعة، وأدوات منهجية، ومعطيات معرفية من حقول متعددة (جغرافيا، اقتصاد، علم اجتماع، علم النفس...الخ)، وكل هذا لكي يتحقق للمؤرخ إمكانية الوصول إلى "**الرؤية الكلية أو الكاملة**" للواقعة التاريخية، وهذه الرؤية هي المطلب الرئيسي في منهج بروديل التاريخي، والتي تكون عن طريق الاستفادة والانفتاح على مناهج العلوم الأخرى (كوثراني، 2013، ص ص 386–395).

تجاوز التاريخ البروديلي تلك القراءة التاريخية التي تجعل من الواقع الإنساني غاية، وتحصر أحداث التاريخ في الشخصيات البطولية، مستبعدة بذلك عوامل أخرى عديدة: ثقافية واقتصادية واجتماعية. وعليه فإن التاريخ البروديلي لم يكن تاريخاً اقتصادياً واجتماعياً فقط، بل هو أيضاً تاريخ جغرافي، وديمغرافي، وثقافي، وسياسي وعسكري، وبالتالي فهو تاريخ شمولي (لوغوف، 2007، ص 211).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

3. بروديل والبحر الأبيض المتوسط

يكتسي حوض البحر الأبيض المتوسط أهمية حضارية، واستراتيجية بالغة، فقد ظهرت على ضفافه حضارات راقية. كما أنه يمثل مركزاً للتجارة العالمية، وحلقة وصل بين مختلف شعوب العالم، خاصة بين ضفتيه الشمالية والجنوبية؛ هذا ما جعله ميداناً للتأثير والتأثر بين الشعوب التي عاشت على ضفافه، وبين الدول التي ظهرت على مر العصور، خاصة تلك التي قامت خلال الفترة الحديثة؛ أي خلال القرن 10هـ/16م، والتي تتركز على الحوضين الشرقي والغربي من هذا البحر (مسعودة، 2015م، ص ص 255-267).

إن البحر الأبيض المتوسط، البحر الداخلي كما وصفه بروديل، ذو الشخصية المعقدة والمركبة والفريدة، ليس بحراً واحداً، بل مجموعة مركبة من البحار التي تعترضها الجزر، وتقطعها أشباه الجزر وتحيط بها السواحل. لقد امتزجت حياة هذا البحر باليابسة، فكانت بيئاته نصف ريفية، وكان بَحارتُه يعملون أيضاً فلاحين، ومن المستحيل فصل تاريخه عن تاريخ اليابسة التي تحتضنه. ولأن "**متوسط التاريخ ليس متوسط الجيولوجيين، لا نستطيع -من دون بذل جهدٍ كبير- التعرف على ماهية الشخصية التاريخية للمتوسط**" (بروديل، 1993م، ص 19).

ويرسم بروديل جغرافية البحر الأبيض المتوسط، وحدوده التي تربطه باليابسة بقوله: "**على خارطة العالم يبدو البحر المتوسط كانخساف يمتد من جبل طارق إلى السويس فالبحر الأحمر. إنخساف تحيط به الجبال وتجعله رواقاً مائياً ينقسم إلى بحار فرعية: الأسود، إيجة، الأدرياتيك، والتيراني، وعلى صورة هذا التقسيم البحري ينقسم البر المتوسطي إلى خمس أشباه جزر أو قارات، لكلٍ منها خصوصيتها: البلقان، آسيا الصغرى، إيطاليا، إيبرية، وشمال إفريقيا. وتشابه تضاريس هذه القارات، إذ يحوي كل منها قسماً جبلياً ضخماً وبعض السهول وتلالاً قليلة وهضاباً واسعة**" (بروديل، 1993م، ص 25).

البحر المتوسط، مجمع البحار- كما يسميه البعض- يتكون أيضاً من شعوب تعيش على شواطئه، وتكسب منه لقمة عيشها، والأفضل من ذلك أنه يظل "**البحر بين الأراضي (اليابسة)**"، بحر دخله التاريخ بفعل ضغط "**القارات**". وبهذا المعنى، يُعد البحر الأبيض المتوسط أيضاً مجموعة من الأراضي المتنازع عليها منذ ثلاثة آلاف عام بين السكان الأصليين وغير الأصليين (Braudel,1949, pp.189-190).

ومن الجزائر العاصمة وساحل متيجة سيعبر بروديل، رجل الأرض، البحر، والمحيط، ويستكشف شخصياً الطرق البحرية العظيمة لهذا البحر. إنه الشغف الفكري لمدى الحياة، في نهاية التشعبين المُؤسِسين لحياته وعمله، مما يُولد أشياء وطريقة تفكير جديدة بالنسبة لهذا المؤرخ.

أصبح البحر المتوسط، أحد أهم حلقات التاريخ القديم والحديث، وارتبط تاريخه بتاريخ بقية البحار، وفي هذه الأهمية يقول بروديل: "**لا يمكن معرفة تاريخ العالم والبحار الداخلية، دون معرفة تاريخ البحر المتوسط ...**" (Braudel,1966, pp.24-60)، ويضيف قائلاً: "**المتوسط حيز متحرك لا تقتصر دائرته على حدوده الجغرافية، الأمر الذي يحملنا على استبعاد تحديد الجغرافيين والجيولوجيين الشائع عند الحديث عن المتوسط**

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

التاريخي الذي تصل حدوده إلى البحر الأحمر والخليج الفارسي. معتمدين في ذلك على المناخ وحده، رغم أهميته. أما المتوسط الذي نعمل على تحديده، متوسط التاريخ والبشر، الذي يمتد دورياً إلى أبعد من شواطئ البحر وفي الاتجاهات كلها... لذا ينبغي الحديث عن عشرات الحدود في آن معاً: الحدود التي ترسمها السياسة والحضارة والاقتصاد والتاريخ... أي الحدود المتحركة التي يرسمها انتقال البشر والمنتجات المادية وغير المادية" (بروديل، 1993م، ص 50).

وعن الأهمية الاقتصادية للبحر الأبيض المتوسط وحركة السفن التجارية والملاحة، فيصفها بروديل بقوله: "... **إن تاريخ البحر المتوسط، لعب فيه الاقتصاد دوراً حاسماً، في أغلب الأحيان؛ في الثروات التي يأتي بها البحر، كمسطح للنقل؛ وسيد هذه الثروات، هو من سيطر على البحر، ولم يكن هذا البحر على سِعته يقبل بسيد واحد في وقت واحد، وليس من الضروري أن يكون هذا السيد سياسياً كروما كما يظهر لنا للوهلة الأولى، وإنما سيد المبادلات، وفروق المستويات في الحياة التجارية**" (Braudel,1949,p.133).

وقد قسّم بروديل متوسطه إلى "**البحرين–العالمين**" وهما الحوض الشرقي والغربي منه، فالجغرافيا والسياسة في حياة هذين البحرين–العالمين، كانت تعكس واقعاً تحتياً عميقاً جوهره اختلافهما الثقافي والاقتصادي، فضلاً عن اختلافهما "**الفيزيائي– الطبيعي**"، وظلت كل محاولة ربط إنساني بين هذين الحوضين الذين حافظ كل منهما على استقلاله الذاتي، مغامرة محكومة بعدم الثبات والاستمرار. وقد برز هذا التفاوت والاختلاف بشكل كبير خلال القرن 16م بين عالمين؛ الإسلامي (الدولة العثمانية) والمسيحي الغربي (إسبانيا)؛ تقدم صناعي تقني للغرب في المقابل تراجع وتقهقر عالم الشرق، لكن هذا التفاوت لا يخفي الوحدة الاقتصادية للمتوسط على الرغم من الحواجز السياسية التي تعيقها. فبقدر ما هو التفاوت كبير، بقدر ما هي تيارات الاتصال والتكامل ضرورية: الشرق بحاجة لمشاركة الغرب في تفوقه التقني، والصناعة الغربية المزدهرة بحاجة لأسواق الشرق. كأن هذه الانقطاعات والتبادلات هي التي تُقيم التوازن في المتوسط وتحرك كل شيء فيه (بروديل، 1993م، ص ص 41–43).

في شخص بروديل، اجتمعت ثلاث نقاط مغامرة: البحر، الأرشيف، والفكرة، مما جعل عمله أكثر شغفاً. ففي أول عبور له للبحر الأبيض المتوسط عام 1923، ركز في حركة واحدة على أشكال متعددة من الاكتشافات: قوة البحر وجماله الجوهري، وإيحاء عالم آخر، والدخول عبر إحدى بوابات الشرق وهي الجزائر، كما أدى أول عبور له للمحيط الأطلسي عام 1935 نحو البرازيل إلى توسيع المغامرة وتجديدها. ومثلت رحلته من البحر إلى المحيط، من "**العالم القديم**" إلى "**العالم الجديد**"، مرحلة عبور خاطبت حواسه، وحفزت خياله، وساهمت في بلورة رؤيته المادية والجغرافية. وقلبت بضربة فكرية مذهلة شروط التبادل بين الملك فيليب الثاني والبحر؛ حين استعد لإعداد رسالة دكتورائه عام 1938م، ولم تُتح له فرصة كتابتها إلا في المعتقل حين اعتقله الألمان خلال الحرب العالمية الثانية؛ تحت عنوان: "**المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**"، والتي نشرت ككتاب فيما بعد (بروديل، 1993م، ص ص 05–22).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ويُعرف بروديل في جميع أنحاء العالم بأنه مؤرخ البحر الأبيض المتوسط، هذا الأخير الذي ارتبطت به حياته منذ شبابه وكانت البداية من الجزائر؛ "**لقد أحببت البحر الأبيض المتوسط بشغف، لا شك لأنني جئت من الشمال، مثل كثيرين آخرين...**". هذا العبور فتح أعيُن بروديل على تنوع البلدان والثقافات، وعلى تعقيد التفاعلات الداخلية والخارجية بين الفضاءات والحضارات، فكان ذلك عبوراً مزدوجاً من الشمال إلى الجنوب، ومن الألمانية إلى اللاتينية، ومن الصليب إلى الهلال.

وقد أحدث بروديل انقلاباً في المنهج التاريخي؛ حيث أنه كتب بروح توليفية عالية من خلال كتابة تاريخ شامل للمتوسط، وبنظرة موسوعية عالج من خلالها السياسة والاقتصاد والجغرافيا والاجتماع والثقافة، بشكل مترابط ومتكامل وفق زمن تاريخي يمكن تفكيكه إلى زمن فردي، وزمن اجتماعي، وزمن جغرافي، بين الأحداث والظروف والبُنى (بروديل، 1993م، ص 22).

4.التعريف بالمجلة الإفريقية(Revue Africaine)

كانت المجلة الإفريقية عبارة عن مجلة تاريخية أكاديمية أصدرتها السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر من خلال الجمعية التاريخية الجزائرية (Société d'Histoire Algérienne)، في 1856م على يد بيربروجر، وتعتبر كأول مطبوعة صدرت عن الجمعية تحت عنوان "**المجلة الإفريقية**" على صورة أعداد فصلية أو دوريّة؛ جمعت على شكل مجلدات ابتداء من عام 1856م إلى غاية 1962م. دام نشرها وطبعها مائة وست سنوات (106) في مائة وستة مجلدات ضمن أربع مائة وإحدى وسبعين عدداً (471) (De Grammont, 1885,p.4).

وكجزء من مجلات الجمعيات العلمية، في سياق الامتداد الاستعماري لفرنسا في الجزائر، تشهد المجلة الإفريقية على لحظة مهمة في إنتاج المعرفة في الأراضي الجديدة الخاضعة للغزو الاستعماري. وتشارك في هذه الحركة من الاستكشاف العسكري، والعلمي، والتوثيق، لهذه المناطق مع الاهتمام المستمر بتوثيق، ونسخ، ورسم، وتخطيط وترجمة للخصائص المادية والفكرية والاجتماعية والسياسية والإثنوغرافية لهذه المناطق. هذا ما جعل المجلة غنية بالمقالات والمراسلات والتقارير والبيبليوغرافيات والمراجعات المتنوعة في مجالات مختلفة مثل: علم الآثار، والنقوش، وعصور ما قبل التاريخ، والتاريخ القديم، والتاريخ المحلي والإقليمي، والإثنوغرافيا، والحياة السياسية، وسجلات الصراعات والحروب والعلاقات الدبلوماسية، وكل ما تعلق بتاريخ الجزائر.

ويرتبط هذا الثراء وهذه الوفرة والتنوع في السجلات التحريرية ارتباطًا وثيقًا بالشخصيات المثقفة والعلمية والأكاديمية، وأيضاً العسكرية التي ساهمت في تنشيط المجلة، والمدعوم من بين أمور أخرى بشبكة من المراسلين الذين زودوها بوثائق كتابية، وأثرية، ومعلومات متعلقة بالاكتشافات والحفريات الأثرية والمخطوطات والمحفوظات (De Grammont, 1885, pp.5-7).

وقد توقفت هذه المجلة بعد استقلال الجزائر عام 1962م، وبعد مرور مائة سنة أصبحت مرجعاً لا غنى عنه في كتابة تاريخ الجزائر بمختلف عصوره. خلال هذه الفترة عرفت المجلة مشاركة العديد من الكتّاب العسكريين

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والمدنيين وغيرهم، من أمثال: رينيه باصيه، دوسلان، جورج مارسيه، دو شارل فيرو، دوفولكس، لويس رين، دو غرامون، بيربروجر وغيرهم، الذين كتبوا في المجلة الإفريقية لاكتشاف الجزائر ولمعرفة أحوال أهلها في الماضي (سعد الله، 2007م، ص 20).

وقد سعت المجلة في الغالب إلى إخفاء وتشويه التاريخ المحلي، وعدم إبرازه وخاصة ما تعلق منه بالتاريخ الإسلامي والذي يظهر فيه انتماء الجزائر لمحيطها العربي الإسلامي، والدليل هو عدم إشارة أعداد المجلة إلى الحضارة الإسلامية المنتشرة في الجزائر، بل عمدت إلى تشويهها واعتبار الفتوحات الإسلامية استعماراً مباشراً ورغبة في توسيع الرقعة الجغرافية والقضاء على العنصر المحلي، وربط وجود العثمانيين بالجزائر والعالم الإسلامي بالجهل والفوضى (رحموني، 2015م، ص ص 44-50).

والدارس لهذه المجلة يلاحظ أنها ركزت كثيراً على الفترات السابقة لفترة دخول الإسلام إلى الجزائر، وخاصة في العهد الروماني، وهذا حتى يُرسِخوا في أذهان الجزائريين بأنهم قبل أن يُصبحوا مسلمين كانوا مسيحيين.

5. قضايا البحر المتوسط والشمال الإفريقي في كتابات بروديل بالمجلة الإفريقية

لم تكن نسبة مساهمة بروديل في المجلة الإفريقية بالمساهمة الكبيرة من حيث عدد مقالاته المنشورة بها؛ هذا من حيث الكم أما من حيث الكيف فقد تمحورت في ثلاث حقول كتابة ذات أهمية؛ تمحورت في مجملها حول الجزائر والأحداث التي مرت منطقة بها شمال إفريقيا من سقوط غرناطة وإلى الاحتلال الفرنسي. ومن بين المواضيع التي تناولها بروديل في مقالاته نذكر:

1.5. الإسبان وشمال إفريقيا 1492 إلى 1577م

هذا المقال (Braudel,1928, pp.184-233 et pp.351-428) الطويل الذي يعتمد بشكل أساسي على استغلال حِزمة من أرشيفات سيمانكاس كان له أثر كبير، لقد انتظرت هذه الحِزم الواردة من سيمانكاس وأماكن أخرى في شمال أفريقيا، ولا تزال تنتظر في كثير من الأحيان قُراءها. وعلى العكس من ذلك، فإن الأفكار التي ظهرت فيه آنذاك كانت بمثابة مرجعية دون أدنى انتقاد حتى اليوم.

وقد نبه بروديل منذ البداية إلى أن دراسته هذه لا تسعى إلى تفصيل الحديث عن هذه القضية تفصيلاً تاماً- الإسبان وإفريقيا الشمالية- بقدر ما تسعى إلى ترتيب المعطيات المتوفرة ضمن خطوط عريضة يقتضيها الهدف المسطر. ويقدم في هامش الصفحة الأولى أهم الدراسات التي عالجت نفس الموضوع Braudel,1928, (pp.184-185.)، نذكر منها:

- بلايفير (Playfair) "**ببليوغرافيا حول الجزائر خلال حملة شارل الخامس في** 1541م".
"A bibliography of Algeria from the expedition Charles V in 1541".
- بالستر (Ballester) "ببيليوغرافيا تاريخ إسبانيا "Bibliographia de la historia de España".

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- سانشيز ألونسو (Sanchez Alanso) "المصادر التاريخية لإسبانيا Fuentes de la historica de España".

- تايلير (Tailliart) "الجزائر في الأدب الفرنسي L'Algérie dans la littérature Française".

ونلاحظ على صاحب المقال أنه لم يعتنِ بالكتابات المحلية (الجزائرية) ضمن البيبليوغرافيا التي اعتمدها في دراسته، بل كانت في أغلبها مصادر غربية، وأرشيفات أوروبية فرنسية وإسبانية بشكل خاص، من مذكرات الرحالة ومراسلات القناصل، وتقارير التجارة. كما أنه يُهون من ضخامة المشروع الإسباني بشمال إفريقيا حيث يعتبره مجرد تفصيل في أعمال فرديناند الكاثوليكي وشارل الخامس (بيرينييه، 1955م، ص 322)، وفيليب الثاني (Dubois, 2007, p.1601) مع بعض المعلومات عن السياسة الأوروبية لملوك إسبانيا في الشؤون الإفريقية (Braudel,1928,p.186)، لكنه يعتبر حملاتهم على المنطقة "**حرباً صليبية إسبانية في إفريقيا**" وهو ما يجعله في تناقض تام.

واعتمد في ذلك على نقده للمصادر المعتمدة، واعتبر كثيراً منها على أنه قد كُتب ليقدم تبريرات للحملات الإسبانية متناسياً قضايا أهم تتعلق بالسياسة الإسبانية العامة. والدليل على ذلك هو اهتمام بعضها بالجانب العسكري كغزو القبائل القريبة من سبخة وهران وقيام المعارك على رمال جربة المتحركة. وضمن هذا النقد يذكر بعض أعمال دوغرامون وبيربروجر، ويُعيب على الباحثين اهتمامهم بالسلاح البحري الإسباني المستخدم ضمن هذه الحرب الصليبية، متناسيين بذلك أمور أكثر أهمية كالسياسة الإسبانية العامة في المنطقة، وغيرها من الأمور التي هُمشت بسبب التركيز على الجانب العسكري والأحداث السياسية (Braudel,1928, pp.188-189).

تمّ التأكيد أولاً وبقوة في هذا المقال، على أن النشاط الإسباني يخضع لتدخلات على جبهات أخرى؛ "**عندما تحتدم الحرب في أوروبا، يكون النشاط الإسباني خاملاً في إفريقيا**"، حتى أن "**أسياد إسبانيا يقاتلون قبل كل شيء ضد القراصنة الجزائريين، عندما تترك لهم الصراعات الأوروبية الكبرى الوقت والوسائل**". وهذا على وجه التحديد هو تصور بأن الشؤون الإفريقية كانت ذات نطاق محدود، وكان الشأن الأساسي في مكان آخر. كما يرى بروديل في الاحتلال الإسباني لمختلف مناطق المغرب العربي على أنه "**نظام الاحتلال المقيد**" واعتبره مشروعاً بائساً ومتواضعاً، وبتقليله من حجم المبادرات، يعتبر أن وهران أو مليلية "**لم تكونا أبداً سوى ألعاب**". والبيان الثالث ينسجم مع البيانين السابقين: "**إن إسبانيا، بتبنيها نظام الاحتلال المقيد والمحدود، حكمت على نفسها بعدم وجود أي شيء**"؛ لا نفوذ، ولا تأثير على دول الشمال الإفريقي الهائلة التي لم تحتلها جيوشها، وعليه دعونا نستبعد فكرة أي نفوذ اقتصادي أو ديني تمارسه المراكز الإسبانية في المنطقة، حيث تُعتبر العلاقات الإسبانية الإفريقية ثانوية في تاريخ إمبراطورية فيليب الثاني، نتج عنه عدم وجود النفوذ الاقتصادي أو التأثير الديني الإسباني في شمال إفريقيا، بسبب عدم اهتمام الإسبان بحضارة المغرب العربي (Braudel,1928,pp.200-207).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وقد دعانا بروديل من خلال مقاله هذا بالفعل إلى ربط دراسة الحرب الإفريقية بممارسات حرب غرناطة "**الحملة الإفريقية الأولى**"، حيث قال بصيغة جميلة- وخاصة في نهاية مقالته- أين كان لديه هذا الاعتراف "لكن هذا التاريخ الرسمي هو ليس كاملاً، تاريخ العلاقات بين إسبانيا وشمال أفريقيا، ونلمح على هامش هذا التاريخ دور الأفراد والمغامرين والتجار في شبه الجزيرة، وسيكون من المثير للاهتمام توضيح طبيعة وأهمية هذه المؤسسات الخاصة والأمل في ظهور تاريخ حقيقي للتجارة في المنطقة الجغرافية المَعنية Braudel,1928, pp.230-233.).

ويقسم بروديل دراسته للفترة التي حددها في مقاله من 1492- 1577م إلى ثلاثة أقسام:

- من سقوط غرناطة عام 1492م إلى موت الملك فرديناند الكاثوليكي عام 1516م، وقد عالجها من ثلاثة زوايا وهي: أهمية الماضي، تأثير المصالح الروحية (الدينية)، ودور المصالح الدنيوية Braudel,1928, pp.191-233).

- امتدت من موت الملك فرديناند عام 1516م إلى معاهدة كاتو- كامبريزي (Cambrèsis Cateau) التي عقدت في شمال فرنسا في 2 -3 أفريل 1559م، بين فرنسا وإسبانيا والإمبراطورية الرومانية الجرمانية، والتي وضعت حداً للصراع بين هذه القوى، وتمّ العمل بها مدة قرن من الزمن لتفتح المجال للتوسع الإسباني في أوروبا، وتُنهي التدخل الفرنسي في إيطاليا. وخلال هذه المرحلة لم تكن الحملات الإسبانية على إفريقيا كثيرة، وبالتالي كانت مرحلة بالغة الأهمية في تاريخ جزء كبير من أوروبا، ولكن دون تأثير بالغ على العالم الإفريقي (Braudel,1928, pp.351-385).

- من 1559 إلى 1577م حيث تركزت اهتمامات إسبانيا على مسائل إفريقيا الشمالية، وصار لهذه الدولة حضور قوي على مستوى الحوض الغربي للمتوسط، بينما صار حوضه الشرقي مجالاً تتحكم فيه الدولة العثمانية، إذا استثنينا نفوذ البندقية وفرسان مالطا. وقد أدت هذه المنافسة الثنائية إلى مجابهة بين الطرفين: في جربة عام 1560م، وفي مالطا عام 1565م، وفي ليبانت عام 1571م، وفي تونس عامي 1573 و1574م (Braudel,1928, pp.385-387).

وقد حدثت القطيعة الحقيقية في عام 1551 مع إخلاء طرابلس من قبل فرسان مالطا، أو في عام 1555م عندما تمّ طرد الإسبان من بجاية، حيث أصبح فيليب الثاني وحلفاؤه في موقف دفاعي في مواجهة المحيط والبربر معاً.

كانت الفترة من 1555 إلى 1574م؛ أي النصف الأول من حكم الملك برودنت، فترة صراع لا هوادة فيه بين الإسلام والمسيحية في البحر الأبيض المتوسط، فعندما تندلع الحرب في إفريقيا أو في البحر الأبيض المتوسط، فإن النشاط الإسباني في أوروبا يكون خاملاً، وعليه يمكن القول إنه ولمدة عشرين عاماً كانت الأولوية للجنوب.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ويمكن تقسيم فترة العشرين عاماً هذه بدورها إلى قسمين: تميزت الفترة الأولى (1555-1564م) بالتقدم الشامل للمسلمين، حيث كان سقوط بجاية نذيرًا بالحصار الأول لوهران عام 1556م، وكارثة كورات ألكوديتي المُقبلة في مستغانم عام 1558م، ثم أعقب انهزام الإسبان في جربة عام 1560م، حصار رهيب لوهران والمرسى الكبير عام 1563، دون أن ننسى الغارات العديدة للقراصنة البربريين على السواحل الإسبانية. والثانية (1564-1574م) كانت أكثر ملاءمةً للملك الكاثوليكي للاستيلاء على جزيرة البنيون في عام 1564م.

إن الدفاع الناجح في نهاية المطاف عن جزيرة مالطا عام 1565م، وفشل تمرد الموريسك عام 1570م، وانتصار ليبانت عام 1571م، والسيطرة -حتى ولو كانت عابرة- على تونس عام 1573م، كلها علامات على التعافي الإسباني، ولكن **بأي ثمن؟** حيث كان القتال شديدًا في كل حلقة، من حلقات هذا الصراع، ولو لم يركز فيليب الثاني على الحدود مع الإسلام، ربما كان بإمكانه التدخل بشكل حاسم خلال هذه السنوات في هولندا؟

وكان في الفترة 1574 إلى 1577م توقيع السلام بين الإمبراطوريتين العظيمتين، إسبانيا والدولة العثمانية، حدثًا كبيرًا، حيث لم يُبدِ فيليب الثاني مقاومة شرسة باستعادة العثمانيين لتونس، كما أن كلا الخصمين كانت له مخاوف أخرى، وبشكل خاص السيادة الإسبانية التي كانت تشكك في مصلحة الاحتفاظ بممتلكاتها في شمال إفريقيا، ففي نهاية عام 1574م، ناقش مجلس الدولة قضية الحفاظ على الوجود الإسباني في وهران والمرسى الكبير، وكذا مصير مليلية. ويُعد هذا العام أساسياً في علاقات فيليب الثاني مع شمال إفريقيا، وهذه المرة كانت الأولوية للشمال، فهل كان إذن من الضروري فك الارتباط بشكل كبير على جبهة البحر الأبيض المتوسط؟ ولأول مرة بهذه الشروط منذ أن استولى الإسبان على مليلية عام 1497م (Braudel,1928, pp.395 -392).

ومن المهم التأكيد على أن فيليب الثاني استبعد فكرة الانسحاب من شمال إفريقيا مهما كانت التكلفة غالية، وهذا بلا شك دليل على أنه كان على علم بالقضايا الاستراتيجية، والمصالح الاقتصادية والدينية، للإبقاء على وجودهم بالمنطقة.

وقد شاركت في هذا الشعور أيضاً دول الأخرى من أوروبا الغربية؛ والتي كان تُجارها يتواجدون بشكل متزايد على الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. علاوة على ذلك، **ألم يقم الملك برودنت بضم الجيوب البرتغالية إلى المغرب دون تردد؟** وهكذا، خلال الجزء الثاني من حكمه، وضع سياسة إفريقية جديدة كان من المقدر لها أن تستمر لفترة طويلة (Braudel,1928, pp.402-403).

ويشير الباحث كذلك إلى الوضع المريح الذي عرفه المغرب الأقصى بعد معركة وادي المخازن (Alcazar Kébir) عام 1578م، مُعترفاً أن إيالتي الجزائر وتونس عرفتا ثراءً وتوسعاً، ومعتبراً هذا بمثابة نهاية مرحلة واستعداد شمال إفريقيا لدخول "**العصر الحديث**"، كما يخلص إلى أن الحملات الإسبانية على شمال إفريقيا بين 1492 و1577م - على الأقل في خطوطها العريضة- لم تحقق سوى نتائج هزيلة، بينما كان الملك فيليب الثاني يعتبر نفسه سيد أوروبا. ويُذكر بروديل بعبارة حاكم وهران فاليخو: "**لقد قايضتْ إسبانيا أكواماً من الذهب بجبال من الحجارة**" (Vallejo,1925, pp.323-368).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2.5. تاريخ شمال إفريقيا لشارل أندريه جوليان

تحدث بروديل في هذا المقال (Braudel,1933, pp.37– 53) عن تاريخ المنطقة مركزاً على أهم المحطات التاريخية التي ميزتها حسب نظرة المؤرخ أندريه جوليان، مع التركيز على وضع بيبليوغرافيا للأعمال التي تتحدث عن الموضوع. وقد ركز فيه على الملوك الكاثوليك وخيمينيس رئيس أساقفة طليطلة، وبأن الحكم الإسباني كان بمثابة "**الملك غير المتوج**"، وقد قدم بروديل تفسيرًا متعدد العوامل للحملات الصليبية على المنطقة. ومن المؤكد أنه يأخذ بعين الاعتبار "**المصالح الروحية**"، مع إبداء تحفظاته بشأن تأثير الدوافع الدينية البحتة على "الشعب الإسباني و"**الجماهير**" بقوله: "**من الصعب السيطرة على التاريخ**" (Braudel,1928, p.203).

ومع ذلك، فإنه يسلط الضوء بشكل أكبر على "**دور المصالح الزمنية**" في أقصى غرب البحر الأبيض المتوسط، والرغبة الإسبانية في اضعاف موانئ القراصنة، في مواجهة الخطر المفترض والمتمثل في إعادة الغزو الأندلسي بدعم من إسطنبول، والأسوأ من ذلك، "**ثقل الإنسانية المبتذلة، القوية، الوحشية والمتعطشة للدماء في كثير من الأحيان، وحشية حروب غرناطة وحروب إيطاليا**" (Braudel,1928, p.211).

وبعد فترة طويلة من "**التخلي الفعلي من قبل حكومة فيليب الثاني عن جميع السياسات الإمبريالية في شمال إفريقيا**" (Braudel,1928, p.192)؛ يفتتح بروديل مقاله، من خلال توسيع عملية الاسترداد عبر الحروب الصليبية، وهي نقطة دعم أساسية في تاريخ الإمبراطورية الإسبانية التي لن ترى النور في نهاية المطاف، تلك التي حاول آل هابسبورغ دون جدوى نزاعها مع الأتراك في البحر الأبيض المتوسط.

يؤكد بروديل أن جوليان عرض الأمور بموضوعية، وعلاوة على ذلك، فإنه يسلط الضوء ومن السطور الأولى على هذا العمل الكبير والمهم، الذي يتضمنه هذا التوليف الممتاز، ونجاحه الذي لا يمكن إنكاره، مما يجعل العمل كتاباً أساسياً كلاسيكياً بالفعل (Braudel,1933, p.37).

جوليان "**لا يحب الإمبريالية والقوميات**"، ويميل في الغالب نحو الدفاع عن الشعب البربري ضد الغزاة الذين كانوا هم الضحية على مر القرون: القرطاجيون، الرومان، البيزنطيين والعرب والأتراك والفرنسيين، موقف مشروع، إذا لم يشوه رواية الوقائع، وهذا هو الحال هنا بالفعل. لكن ألا يدفع ذلك المؤرخ إلى اعتبار الكنيسة الإفريقية مستوردة من الخارج، وخادمة للإدارة القمعية أو الأرستقراطية الأنانية في زمن الإمبراطورية الرومانية، المتحالفة مع المؤسسات الاستعمارية في العصر الحديث (Braudel,1933, pp.40–41).

إن السيطرة الدائمة التي مارستها الإمبرياليات على كنيسة إفريقيا حفزت السلطة، لكنها في كثير من الأحيان أضعفتها، وكانت عنصراً نشطاً في تحليل التاريخ الديني لمستعمرتنا (إفريقيا)، بينما نؤكد بحق على التحولات الاقتصادية، والمشكلة الاجتماعية، وحتى الحركة الأدبية والفنية. وفي هذا العمل الذي تم تأليفه كانت المهمة صعبة، لأن هذه القصة لم تُكتب بعد بطريقة مرضية حقًا؛ إن الأدبيات المتواضعة في كثير من الأحيان والتي ألهمتها كنيسة إفريقيا الجديدة حتى الآن، تجعلنا أكثر شغفًا للقيام، وفقًا لمنهج علمي بحت، بهذا الفصل من التاريخ التبشيري والكنسي (Braudel,1933,pp. pp.52–53.).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

كل شيء يحدث كما لو أن بروديل اعتبر أن جوليان وعمله هما الوحيدان اللذان يستحقان النقد والتقدير معاً، حيث يرى مُتفقًا مع أستاذه هاوزر، أن إبداع التوليف يكمن في القدرة على تحديد خطوط الوضوح على مدى فترة طويلة من الزمن، وحاول جوليان تحقيق ذلك بنجاح في العديد من المرات، ولكن ليس كلها. وسوف نتفق مع بروديل في أن جوليان أعطى مكاناً كبيراً للمسائل المالية في دراسة الغزو، كما أنه لم يحقق أقصى استفادة من أعمال جورج مارسيه عن الفترة الإسلامية الكلاسيكية، ومع ذلك، فإن احتجاج بروديل الذي يتحدث عن بعض النقائص، ليس في حد ذاته خاليًا من الأخطاء؛ لأن ناقد جوليان بدوره يتجاهل تماماً الدرس الذي يوجهه ويليام مارسيه –أستاذ الدراسات العربية في المغرب العربي وشقيق جورج– إلى مؤلف كتاب "**العصور الغامضة في المغرب العربي**"، وبعض التفسيرات الخيالية لها الناتجة عن التصنيفات القَبلية غير المضبوطة (Braudel,1933, pp.42-49).

وبروديل هنا يقف في موقف المعارض، ويسلط الضوء على أخطاء التأريخ في القرن 16م، والتي تعتبر –حسب رأيه– غير منهجية وينقصها التحليل، حيث يُدين وينقد بشدة المكانة الاستثنائية للسير الذاتية للأشخاص العظماء، وقصص المعارك، مع غياب دراسة دقيقة للأسلحة والمعدات، فضلاً عن المعرفة الحقيقية برسم خرائط شمال إفريقيا والتعليمات البحرية (Braudel,1969, p.210.).

وهكذا فإن التاريخ الإسباني في نظر بروديل، وبالأخص ما تعلق بتاريخ مسألة شمال إفريقيا، يظل غير مرضٍ، بسبب الفشل في رؤية وتطور الأحداث بالمنطقة؛ وترتكز مادة مقال 1928 برمتها على التمييز بين ثلاث مراحل تُبرز ديناميكيتها وحدودها، وفق تقسيم يكمن ذكاؤه في العلاقة الوثيقة التي تربط شؤون أوروبا وشؤون شمال إفريقيا (Braudel,1928, p.370).

ويعود ضعف الدراسات المتعلقة بالشركات الإسبانية في شمال أفريقيا إلى "**نظرة جزئية للمسألة**"، وهي تُرى بحسب المؤلفين الإسبان (الأغلبية العظمى)، أو من المغرب العربي (ميرسييه وكور)، أو من السياسة الأوروبية والتاريخ العام (ميريمان). وسوف يوضح بروديل وجهات النظر الثلاث، ومراكز المراقبة التي تتوافق معها، أما بالنسبة لـ "**الحملة الصليبية**"، التي من شأنها إطالة أمد الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبيرية لإفريقيا، فهو يرفض اختزالها في التعصب ويضع "**أهمية الماضي والعواطف الدينية والمصالح الزمنية**" على قدم المساواة، ولن تتغير هذه الطريقة في فعل الأشياء لاحقًا، حتى لو كانت هناك حاجة إلى رؤية جديدة للتاريخ، تُغذيها مفاهيم ونماذج جديدة، في تحول أقوى من أي وقت مضى على جانب الجهات الفاعلة والممارسات الاقتصادية، ولكن أيضًا على جانب الزمان والمكان، مع اهتمام متزايد بالتاريخ العالمي، أو بالأحرى التاريخ الشامل (Braudel,1969,p.37).

–كما أورد بروديل مقالين مستقلين للحديث عن الجزائر وهما: أحدهما بعنوان: "**رحلة عبر ماضي الجزائر**"(Braudel,1930, pp.154-165) والآخر بعنوان: "**اكتشاف الرسم الجزائري والفرنسي في القرن التاسع عشر من خلال كتاب حديث**" وهو قراءة في كتاب "**ألزار جان**" Alazard Jean, L'Orient et la

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

"peinture française au XIXe siècle, Eugène Delacroix à Auguste Renoi (Braudel,1931, pp.102-110)، مركزاً فيهما على الفترتين الاستعماريتين الإسبانية والفرنسية، منوهاً إلى أن المؤرخين الفرنسيين قد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار، ولكنهم لم يدرسوا تطور المجتمع الجزائري ولا سياسة بلادهم نحو الجزائريين. وقد تحدث أيضاً عن بعض الرحلات الاستكشافية التي قام بها أوروبيون نحو الجزائر وشمال إفريقيا من أمثال: دي لاكروا، فرومانتين، غيلومي وغيرهم.

وقد وصف بروديل الصراع القائم في حوض البحر المتوسط بين العالمين الإسلامي في الشرق والمسيحي في الغرب بقوله: "**إن الغرب والإسلام هما كالهر والكلب، يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس. إنهما عدوان متكاملان، الأول ابتكر الصليبية وعاشها، فيما ابتكر الثاني الجهاد وعاشه**" (بروديل، 1993م، ص 136). ويُكمِل بروديل تحليليه لهذه الفكرة وتوسيعها، دامجاً بين العنصرين الديني والحضاري في تعبير واحد، فهو يرى أن الديانات هي أكثر ما في الحضارات تفردّاً ومقاومة (كوثراني، 2000م، ص 28). ويشرح وجهة نظره عبر نص مكثف، عدّد فيه مظاهر الصراع ووجوهه، متخذاً كلاً من القضية الموريسكية والقرصنة البحرية واعتبارها مظهراً من مظاهر الصراع ووجوهه، بين العالمين الإسلامي الممثّل بالإمبراطورية العثمانية، والعالم المسيحي الغربي الممثّل في الإمبراطورية الإسبانية.

إن ما حدث في إسبانيا تجاه الموريسكيين الأندلسيين يمكن اعتباره استعمارًا حقيقياً، وهذا بالنظر إلى كل ما تعرضوا له من نهب، واعتداء، وقتل، واستبداد، ومجازر، واضطهاد، ديني...الخ، ومثل هذا الاستعمار ليس ثمرة تحولات اقتصادية واجتماعية، بل هو نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية، وهذا ما يتضح في إرغامهم على اعتناق الدين المسيحي (بروديل، 1993م، ص 139). ويتساءل هنا بروديل عن نطاق الطرد الجماعي للموريسكيين وفشل الاندماج؛ كان هذا أمراً لا مفر منه بسبب رفض الموريسكيون للحضارة المسيحية، وكراهيتهم لها، "**الكراهية العنصرية**" (Liauzu,1991, p.186).

وحاول اسقاط الصورة نفسها على الوجود الفرنسي في الجزائر، هذه الأخيرة التي وجدت نفسها في قلب مشروع استعماري، في دوامة من الحضارات المتعارضة التي ترفض مياهها الغاضبة الاختلاط. أما بالنسبة لتقييم سياسة الملوك الكاثوليك وخلفائهم، فيرى أن الحكومة القشتالية بطردها للموريسكيين غذت روح الفئات المعارضة والحاقدين عليها، وصنعت منهم فئة ستتحين الفرص للانتقام منها.

وضّح كذلك الدور الذي يلعبه الدين في حياة المجتمعات، ففي الوقت نفسه هو طريقة للعيش والتفكير والتأمل، قاعدة كل ما نسميه الحضارة، إن قسوة المسيحيين في القضاء على شبه الجزيرة التي أعيد احتلالها، وتطهيرها، لا تساويها إلا تلك التي عاشها الموريسكيون في الصمود، والحفاظ على أخلاقهم، والتمسك بدينهم سراً، وفي هذا الصدد يذكر قائلاً: "**إنّ سفن الأسطول الجزائري قد جعلت البحريّة بين إسبانيا وإيطاليا عمليّة صعبة ... لقد كلّفنا الحصار البحري تضحيات جسيمة جعلتنا نفكّر في إحداث طريق برّي آمن... ثمّ نبدأ من جديد بإرسال حملاتنا البحريّة ضدّ الجزائر وتونس**"(Braudel, 1928, (p.380) .

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وعن فشل المشروع الاستعماري الإسباني في السيطرة على سواحل الشمال الإفريقي، يذكر بروديل قوله: "**لقد اتجه الإسبان إلى السيطرة على الساحل الإفريقي، من غير أن تتوافر لا الإرادة، ولا الوضوح، ولا الاستمرارية المتطابقة مع المصالح الإسبانية لإنجاز تلك السيطرة. فعدم استمرار إسبانيا في خوض هذه الحرب بسبب سياسة الاحتلال المقيّد، بعد احتلالها مدناً عدة على الساحل الإفريقي، هو الذي آل إلى كارثة إسبانية سببها جري الإسبانيين وراء سراب إيطاليا وسهولة السيطرة على أمريكا. وهكذا لم يُكتب لإسبانيا أن تقوم بجناحين أحدهما إفريقي والآخر أوروبي**" (بروديل، 1993، ص 38).

ومما لا شك فيه أن تقييد الاحتلال مكلف للغاية على المدى الطويل، وكان على إسبانيا أن تُخصص لشمال إفريقيا الموارد والقوى العاملة التي كانت لا غنى عنها، لاحتلال واسع النطاق (Robert,1932, pp.347-349).

كانت المستعمرات وشعوبها خاضعة للاستغلال بلا هوادة؛ إذا استولت أوروبا على مفتاح العالم، وعرفت كيفية استخدامه، ذلك لأنها كانت مهيأة عقليًا وماديًا له، وقبل وقت طويل، بسبب امتلاكها القوة والمعرفة والمهارات والقدرة الكافية على العنف، وفي العمل الجماعي المكرس لأوروبا، كل هذا كان مسؤولاً عن الفصل الخاص بالأوروبيين خارج أوروبا وعن التوسع الاستعماري(Liauzu,19991,pp.181-182). وفي الأساس، البحر الأبيض المتوسط البروديلي هو بحيرة غربية؛ حيث الإسلام دخيل كما يرى بذلك بيران وغيره، أين يبقى الإسلام موطنه الأصلي الصحراء، التي ميزته خلقيًا؛ وهكذا يكون بروديل ضمن سلسلة طويلة من المؤلفين الغربيين من أمثال: بول، فاليري، بيران، ... الخ، ممن فكروا في البحر الأبيض المتوسط منذ القرن 19م وحتى انتهاء الاستعمار كبحر الهيمنة الأوروبية(Liauzu,19991, p.186).

لقد قضى بروديل عشر سنوات في الجزائر بين 1923 و1932م، وتحدثت خلالها عن علاقته بالدراسات الاستعمارية التي كانت منتشرة في "**جامعة الجزائر**"، وتناولت التأثيرات التي مارسها عليه أساتذة المدرسة التاريخية الاستعمارية الذين شوهوا تاريخ الجزائر لأغراض كولونيالية، أمثال: ستيفان غزيل، وايميل فيليكس غوتييه. وقد كان هذا الأخير باعتباره زعيماً للدراسات الكولونيالية في جامعة الجزائر، مُلهما حقيقياً لبروديل الشاب، وتجلى ذلك في اعترافه بتأثير غوتيه عليه، وبأنه يضع أعماله ضمن فئة الأعمال الأساسية التي ألهمت تفكيره حينما كتب عن فكرة "**التاريخ والوسط الطبيعي**" (Florence,2020,p.28).

وقد راح بروديل يدافع عن أستاذه غوتييه، وعن أطروحاته الكولونيالية؛ فكان بذلك من أنصار المهمة الحضارية للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويشيد باستعمار هذه الأخيرة، ويفند من بين أمور أخرى أن المسلمين يقبلون الهيمنة الأوروبية دون تردد، فارتبطت أعماله بالحقل الأكاديمي الاستعماري، مما يطرح سؤال التأثيرات السياسية على أعماله. وقد توطدت أواصر الصداقة بين بروديل، وأستاذه غوتييه، فكان يبدي إعجابه بهؤلاء المؤرخين الكولونياليين، وكان يساهم بمقالات في المجلة الإفريقية (مسعودة، 2020م)، هذه المجلة ذات الأغراض الاستعمارية والتي ساهمت في تكريس الهيمنة الإيديولوجية.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ويعتقد بروديل أن شمال إفريقيا، أو الضفة الجنوبية الغربية للمتوسط، هي أرض "**الكولونياليات المتتالية**"، فركز على بدايات الاستعمار، مع الفينيقيين في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كأول استعمار يحل بشمال إفريقيا. وفي النصف الأول من القرن العشرين، كانت الخطابات الأكاديمية حول استمرارية أساليب الحياة المطبقة في شمال إفريقيا، ولا سيما الجزائر، تتشكل بعمق من خلال الانقسامات السياسية حول تنفيذ مهمة الحضارة، إن المجال الأكاديمي للجغرافيا الاستعمارية بعيد كل البعد عن إنتاج نموذج موحد، وإن الصلات مع مواقف غوتييه بشأن الشرق تدعونا بالتالي إلى التساؤل عن البعد السياسي لعمل بروديل في علاقته بالإمبراطورية (Florence,2020, pp.28-35).

خاتمة

لقد كان بروديل من المؤرخين الأوروبيين القلائل الذين نأو بالكتابة والتنظير التاريخي عن المركزية الأوروبية في تفسير الأحداث وتحليلها في سياق تاريخي شامل، فهو يعرف كيف يضع الحدث عبر الزمن، وينتقل من الحكاية إلى الجوهر، ومن الخاص إلى العام، ومن المحلي إلى العالمي.

– سعى بروديل إلى حلول متعددة العوامل للمشاكل والقضايا المطروحة، ومارس التفسير السببي دون القضاء على الصدفة والعشوائية، ويهتم بالعمل المتعمد دون محو الوهم والأحلام والعواطف، حيث يجتمع شغف الفهم والنظرة التحليلية المعمقة البعيدة عن أي حماس إيديولوجي، وهذا ما حاول تجسيده في كتابته لتاريخ البحر الأبيض المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي، وللأحداث التي عاشتها منطقة الشمال الإفريقي لا سيما خلال القرن 16م بين العالمين الإسلامي ممثلا في الدولة العثمانية وإيالاتها بالشمال الإفريقي، والعالم الغربي المسيحي ممثلا في الإمبراطورية الإسبانية.

– لقد عاب بروديل على إسبانيا انتهاجها سياسة الاحتلال المحدود (المقيد) لمنطقة شمال إفريقيا، لأن هدفها كان السيطرة على السواحل المغاربية، لمنع أي حركة استرداد للأندلس من طرف المسلمين. وبذلك لم يعرف الإسبان كيف يحافظوا على ثمار نجاحاتهم من خلال سياسة حكيمة، ما سمح للأحداث بأن تكون على عكس توقعاتهم وانتهى ذلك بفشلهم في السيطرة والبقاء بالمنطقة، كونهم اكتفوا وفقط بإبقاء جيوشهم في المعاقِل الساحلية دون التغلغل نحو الداخل.

–رغم محاولة بروديل الالتزام بالمنهجية العلمية، ولكنه لم يكن بمنأى من التأثر بنظريات المؤرخين الاستعماريين الفرنسيين، فهو قد جمع المادة التاريخية وإنْ كان أكثرها من مصادر غربية، وأرشيفات أوروبية، وأهمل الوثائق المحلية والمصادر العربية والتركية، وعدم اعتماده عليها لا سيما الجزائرية منها، والتي ستساعده في معرفة الوجه الحقيقي لهذه الأمة. ورغم أنه حاول أن يعطي صورة شاملة وبنظرة تحليلية مغايرة لما كان حول ما عاشته المنطقة؛ لكن هذا لا يتأتى إلا بالاعتماد في نفس الوقت على كلا الإنتاجين المحلي والغربي، للخروج بنظرة متوازية وذات مصداقية أكبر في عرض الأحداث التاريخية.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الملاحق

الملحق رقم (1): جدول: يمثل مقالات فرناند بروديل المنشورة بالمجلة الإفريقية.

عنوان المقال بالفرنسية	عنوان المقال بالفرنسية	رقم المجلد	السنة	عدد الصفحات
Les Espagnols et l'Afrique du Nord: De 1492 à 1577.	الإسبان وشمال إفريقيا ما بين 1492-1577	T69	1928	pp.184-233. pp.351-428.
Un voyage à travers le passé de l'Algérie.	رحلة عبر ماضي الجزائر	T71	1930	pp.154-165.
La Découverte de l'Algérie et la peinture française au XIXè siècle d'après un livre récent .	اكتشاف الرسم الجزائري والفرنسي في القرن التاسع عشر من خلال كتاب حديث.	T72	1931	pp.102-110.
A propos de l'Histoire de L'Afrique de Nord de Charles-André JULIEN.	حول تاريخ شمال أفريقيا بقلم شارل أندريه جوليان.	T74	1933	pp.37-53.

المصدر: من إنجاز الباحثة.

الملحق رقم (2): دائرة نسبية تمثل نسبة مقالات بروديل المنشورة بالمجلة الإفريقية 1956-1962

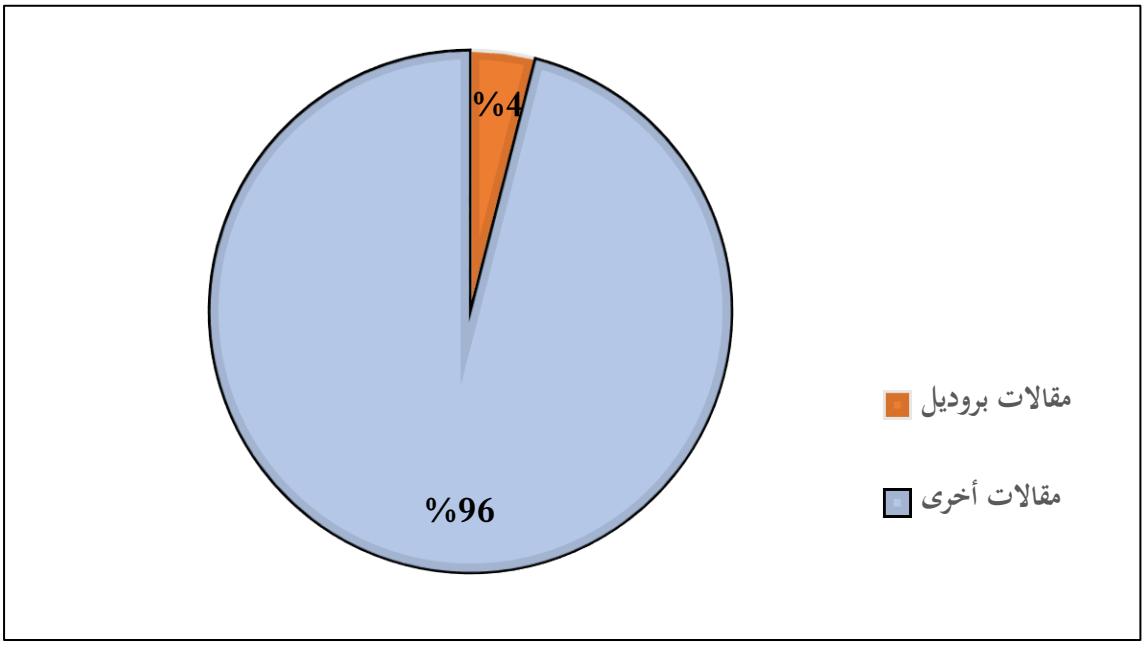

المصدر: من إنجاز الباحثة.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

1. باللغة العربية:

- بوجلال مسعودة، (2014-2015م)، **العلاقات العثمانية -الإسبانية على ضوء كتابات برودال**، رسالة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.
- (ـــــــ)، (2019-2020م)، **الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير ما بين (1505-1792م) من خلال المدونات الفرنسية: المجلة الإفريقية (R.A) ونشرية وهران الأثرية والجغرافية (B.S.G.A.O) أنموذجا دراسة ببليوغرافية تحليلية**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، الجزائر.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- بيرينيه جان وآخرون، (1955م)، **موسوعة تاريخ أوروبا العام منذ بداية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر**، بيروت، ج2.
- دوس فرانسوا، (2009)، **التاريخ المفتَّت من الحوليَّات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، مرجعة: جوزيف شريم)، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية.
- رحموني عبد الجليل، (2014-2015م)، **اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية (1520-1830م)**، رسالة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر.
- سعد الله أبو القاسم، (2007م)، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، طبعة خاصة، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، ج1.
- فرنان برودل، (2013)، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية: من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر**، الجزء الأول: الحياة اليومية وبنياتها الممكن والمستحيل)، ترجمة: مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، ج1.
- (ـــــــــ)، (1993م)، **المتوسط والعالم المتوسطي**، تر: مروان أبي سمرا، ط1، بيروت، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- (ـــــــــ)، (2008م) **ديناميكية الرأسمالية**، تر: شفيق محسن، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- (ـــــــــ)، (2009)، **قواعد لغة الحضارات**، ترجمة: الهادي التيمومي، مراجعة: فتحي ليسير، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية.
- (ـــــــــ)، (1999)، **تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة وتعليق**، سفير. د. حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كوثراني وجيه، (2000م)، **الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل، دراسات في البحث والبحث التاريخي**، ط1، بيروت- لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر.
- (ـــــــــ)، (2013)، **تاريخ التأريخ (اتجاهات، مدارس، مناهج)**، ط2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت.
- لوغوف جاك، (2007)، **التاريخ الجديد**، تر جمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، مر: عبد الحميد هنية، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- ليتشه جون، (2008)، **جون، ليشته: خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة**، ترجمة: فاتن البستاني، مراجعة: محمد بدوي، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية.

2. باللغة الأجنبية:

- Bhattacharya (Sisir), (1990), " **Understanding Reality: Marx, Heisenberg and Braudel**", The Indian Journal of Political Science, Vol 51, N° 3, July– September.
- Braudel Fernand (1931), **LA Découverte de L'Algérie et la peinture française au XIXe siècle d'après un livre récent**, R.A, Vol 72.
- **(——————)**, (1928), **Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577**, in: R.A, Vol 69.
- **(——————)**, (1930), **Un Voyage à Travers le passe de L'Algérie**, in: R.A, Vol 71.
- **(——————)**, (1933), **A propos de L'Histoire de L'Afrique du Nord de Charles André Julien**, R.A, Vol 74.
- **(——————)**, **(**1949**), La Méditerranée à l'époque de Philippe II**, 1ère éd, Paris.
- **(——————)**, (1966), **La Méditerranée et le monde Méditerranéen à L'époque de Philippe II**, T2, 2eme éd, Librairie Armande Colin, Paris.
- **(——————)**, (1968), **Ecrits Sur L'histoire**, Flammarion, Paris.
- De Grammont (H-D), **(**1885**), Introduction, Table générale: 1856-1881**, revue Africaine Journal des Travaux de la Société Historique Algérienne, Adolphe Jourdan, Alger.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- Deprest Florence, (2020), **Fernand Braudel et La géographie «Algérienne»: aux sources coloniales de L'histoire immobile de La Méditerranée?, cairn. Info, La contemporaine « Matériaux pour l'histoire de notre temps »**, N°99/3.
- Don Josef Vallejo, (1925), **Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers-el kébir**, Traduction et annoté par Cazenave (J), in: R.A, T 66.
- Fernand Braudel, (1979), **Civilisation matérielle et Capitalisme, XVème – XVIIIème siècle**, Vol,1,2,3, Armande Colin, Paris, Vol 2, Les jeux de L'échange.
- Kellenbenz, Hermann, (1975), **Ecrits sur l'histoire, Flammarion by Fernand Braudel, Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaf tsgeschichte**, 62, Bd, H. 2.
- Liauzu Claude, (1991), **La Méditerranée selon Fernand Braudel**, Confluences Méditerranée, N°31, Automne.
- McNeill William (H), (2001), "**Fernand Braudel Historian**", the Journal of Modern History, the University of Chicago Press, Vol.73.N°1, March.
- Ricard Robert, Fernand Braudel, (1932), **Les Espagnols en Algérie, 1492-1792, dans Histoire et Historiens de L'Algérie**, In Bulletin Historique, Tome 34, n°4.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)